قراءة المعنى الصوفي في الشعر العربي عند عبد القادر فيدوح

Reading the sufi Arabic poetry meaning through Abdlkader Fidouh

ط. د سعاد بورجام *

أ. د سعيد بكير ♣

تاريخ الإرسال: 2025/01/07	تاريخ القبول: 2026/05/17	تاريخ النشر: 2026/06/10

الملخص:

يعد التصوف في الشعر أداة تفكير حدسي تأملي، أخذ من غير باب الأدب لينتج خطابا يجمع ما بين الدين والأدب، غوصا في أعماق الذات الإنسانية التي تعالت بوعيها عن المؤثرات الحسية إلى اعتناق الروحانية والعوالم المثالية.

إن انفتاح النص على النزعة الصوفية أدى إلى تعدد الدلالة في الخطاب الشعري، التي قوبلت بتعدد القراءات النقدية، فكان عبد القادر فيدوح من النقاد الذين قدموا مشروعا نقديا للبحث في أصول الصوفية والباعث وراء هذا الاندماج بين روح المتصوف والشاعر في القصائد الحداثية، من منطلق اعتقاده أن كل تجربة شعرية هي ترجمة لتجربة حياتية عاشها الشاعر بوجدانه ومشاعره ومثلها في قصائده، بحيث تكون كل قصيدة محاولة لإعادة بناء ما تفكك في واقع الشاعر.

الكلمات المفتاحية: المعنى، الصوفية، الصوفية الوجودية، اللغة الشعرية.

Abstract:

Poetry In order to create a discourse that merges religion and literature, Sufism is a tool of intuitive contemplative thought that is borrowed from beyond the literary domain. however It delves into the depths of the human self that have intentionally risen above sensory stimuli to

* جامعة الشلف s.bouredjam@univ-chlef.dz

♣ جامعة الشلف saidbakir2@gmail.com

embrace spirituality and ideal worlds. moreover a multitude of critical readings were offered in response to the poetic discourse's multiple meanings, which were a result of the Sufi opening text tendency. obviously Based on his conviction that every poetic experience is a translation of a life experience that the poet lived with his conscience and integrity, likewise Abdelkader Faydouh was one of the pioneer critics who presented a critical project to research the origins of Sufism and the motivation behind this integration between the Sufi spirit and the poet in modernist poetry.

***Keywords**: Existential, Sufism, Meaning Sufism, poetry language.*

*** *** ***

المؤلف المرسل: سعاد بورجام، s.bouredjam@univ-chlef.dz

1.مقدمة:

تنفتح القراءة التأويلية للخطاب الشعري الصوفي على إمكانية تفاعل المتلقي وتجاوبه مع تلك الحمولة الوجدانية والفكرية للنص؛ فينتقل القارئ من كونه "أنا مستقبلة " إلى "أنا منتجة للمعنى " تساهم في تشكيل البنية الفنية للنص. ضمن هذه الفاعلية قدم عبد القادر فيدوح أطروحاته الفكرية في قراءة الأثر الأدبي الصوفي، واستنطاق كلماته؛ لاستظهار الواقع المأمول من الكتابة الشعرية الصوفية والعوالم التي تخلقها تلك الذات الشاعرة الحالمة.

إن هذه القراءة جعلت الناقد لا يعتمد المنقوش اللفظي، بل يتعداه للبحث في ما وراء السطور من إشارات دالة، فكانت تبطنا في منافذ المعرفة عند الشعراء الحداثيين المتشعبة المسالك، خاصة وأنها تنتقل ما بين المعلوم والمجهول، المعرفة الحسية والروحانية، لهدم المعتقد الكلاسيكي السائد في الخطاب الشعري، والدفع بالخطاب الإبداعي إلى متابعة التشظي الفكري وخيبة الواقع وملء الفراغ برؤية تتأسس على فعل الخلاص من الأزمة.

جاءت قراءة الناقد للخطاب الشعري الصوفي في مستويين: مستوى البحث في المرجعية، حيث تحدث عن العوامل الفاعلة في نشأة النزعة الصوفية في الشعر، وتأثر الشاعر بالجوانب الدينية والسريالية للمتصوف. ومستوى التحليل النقدي التأويلي للنصوص الشعرية الصوفية؛ لتوضيح كيفية تعامل الشعراء مع الكشف الصوفي، مستندا إلى نظريات التحليل النفسي ورموز الصوفية.

وفي هذا الشأن جاءت دراستنا هذه كقراءة لقراءة نقدية، نحاول من خلالها ابراز العلاقة ما بين الرؤية الصوفية والرؤية الشعرية من منظور الناقد عبد القادر فيدوح وفق رؤية تأويلية نبحث من خلالها عن معنى المعنى الذي قدمه الناقد في نسق تساؤلي، انطلاقا من معالجة الإشكاليات الأتية:

- **ماهي الخلفيات التأسيسية للنزعة الصوفية في الخطاب الشعري ؟**
- **ماهي مكونات الخطاب الشعري الصوفي في منظور عبد القادر فيدوح ؟**
- **كيف تمظهرت الصوفية في القصائد الشعرية الحداثية ؟**

2. النزعة الصوفية في الشعر العربي:

إن التصوف في نظر الشعراء الحداثيين فكرة تطهير النفس، وتصحيح نمط السلوك، انتقل به الشاعر من بيئته الدينية ليجعله رؤية جمالية غيرت نمط الكتابة الشعرية الحداثية إلى كتابة رمزية.

وقد كان التصوف في بداية أمره مقتصرا على شيوخ الزوايا والمريدين، ومع توسع دائرة المعرفة وتداخل الثقافات الإنسانية أصبح ملجأ لكل من أراد التعالي عن الواقع واكتشاف الذات الداخلية للإنسان، وهو بهذا ليس مغالاة في الزهد والتعبد- كما يراه البعض- فقط، إنما هو نمط تفكير سيكولوجي، ورؤيا عالم حدسي، مما يعني أن القصيدة العربية بدأت بتوظيف مضامين دينية من اقتباسات قرآنية وأدعية؛ بدعوى الإصلاح إلى أن تطورت إلى التوظيف الروحي حبا في الله وتقربا إليه، ومع تغير العصر، وتفكك النظم المركزية، وتشظي الذات العربية بين مستجدات العصر والتمسك بالتراث، ظهرت الصوفية في شكل يوتوبيا الخلاص من الشتات، فأصبحت القصيدة تحمل في طياتها أبياتا

تعكس وعيا عميقا بالمعاني الروحية التي توحي بعلاقة الشعراء بتراثهم، وفهمهم لمعنى التجربة الشعرية الفائضة بالمشاعر، وعلى هذا النحو أصبح المصطلح الصوفي وحدة لغوية تعكس بنية تصورية لمسالك التجربة الوجدانية الفردية للشاعر.

1.2 مكونات الخطاب الشعري الصوفي:

يتشكل الخطاب الشعري الصوفي وفق ثلاثة أبنية: البنية اللغوية، البنية الفكرية المعنوية، البنية الجمالية الفنية، بحيث تكون هذه التركيبة خاضعة لتصورات ذهنية ذاتية، من لدن الشاعر. بمعنى أن القصيدة الصوفية لا تتأسس على أفكار عقائدية إسلامية فقط، إنما قوامها المعرفة الحدسية المفعمة بالقلق النفسي والحيرة، وتوظيف اللغة الصوفية التي تكمن وظيفتها في الإحالة إلى ما يرمز إليه المحمول الضمني في المتن؛ إذ يتجلى التصوف في الشعر الحديث في شكل تأصيل للتراث الإسلامي العربي ومخزونه اللغوي والمعنوي، وفي هذا الشأن يقول محمد مرتاض :"إن أروع شعر وأجمله من غير مبالغة هو شعر الصوفية؛ لأنه يفيض بشعور الوجدان وصدق العاطفة، وصدق التوجيه، ولكن الأمر الذي يجب أن يعرفه الدارس لهذا الشعر، أن المعنى عميق والفكرة فلسفية، والتأويل مشوب بالرمز، غالبا مالا يكون واضحا للعيان"[1]، وهنا يمكننا الإشارة إلى مكونات الخطاب الصوفي وفق الشكل الآتي:



إن هذه التركيبة هي النسيج العام الذي يميز الكتابة الشعرية الصوفية عن الكتابة الشعرية المتداولة، فالنص الصوفي هو رؤيا قبل أن يكون خطابًا، يقصد به إنشاء حوار باطني ينقل الذات المبدعة من معاينة الظاهر إلى استجلاء الباطن عن طريق وسيط

لغوي يتراوح ما بين الصمت والبوح، مما يعني أنه تصوير فني بفكر صوفي، الغاية منه في التجريب الحداثي هو إيصال رسالة انسانية بعيدة عن الغرض الديني.

ضمن هذا السياق جاء تحديد معنى الشعر والرؤيا الكشفية عند عبد القادر فيدوح على النحو الآتي: حيث يرى "أن الشعر هو جوهر الرؤيا الكشفية التي تبحث في علاقتنا بالكون، وتقرب صلتنا فيما تتخذه المعرفة البدئية بالمعرفة الوجودية "[2]، فيما يمكن أن تقوم عليه البنية التأسيسية للشعر الصوفي المعاصر- من منظور الناقد- على القلق النفسي المتولد عن فترة الأزمة، وهو هنا يؤكد أن العملية الإبداعية في العصر الحديث أصبحت تجربة معرفية إنسانية أكثر منها نسق جمالي لغوي، تتشكل معالم تميزها من مناشدة التحرر والتمرد على النظم السائدة، داعيا إلى التركيز على الوعي الممكن استنتاجه من النص، وليس على جمالية البنية الشكلية فالشعرية حسب الناقد تكمن في تجاوز النص للسياق المعلوم والانكشاف رؤيويًا على ما يجب أن يكون عليه عالم الإنسان؛ إذ إن الشعر العربي الحديث أخذ على عاتقه مهمة "التلخيص والتخليص"؛ أي أنه يلخص حياة الإنسان العربي بكل تناقضاتها في أبيات شعرية، يحاول من خلالها تخليص هذه الذات فنيًا من أزمات نفسية اجتماعية سياسية وغيرها، وليس التعبير الفني إلا رد فعل انفعالي عن شعور مأساوي.

2.2 المرجعية الصوفية في الشعر العربي:

تأثرت الحياة الروحية في العصر الحديث بمستجدات الحياة السياسية والاقتصادية، فاتسم المجتمع بالفوضى، وازداد الإحساس لدى النخب المثقفة بضرورة المشاركة في خلق التوازن الوجودي، ضمن هذا السياق ظهرت العديد من الأطاريح السيكولوجية، تحمل فكرة تعويض المادي بالمعنوي؛ للتخلص من الذهنية الانهزامية التي رافقت عقل الإنسان فترة من الزمن، فظهرت السريالية في الفكر الغربي، والصوفية في الفكر العربي الإسلامي، علما أن هذه النزعة لم تكن وليدة العصر؛ إنما كان ميلادها في العصر الأموي والعصر العباسي، واستثمرت في العصر الحديث من طرف الشعراء العرب كوسيلة للمناجاة الوجدانية وللخلاص من الأزمات النفسية، بالإضافة إلى استظهار الهوية التراثية الروحية العرفانية الإسلامية التي حفظها الضمير الجمعي، كونها تصور حالة

الصراع النفسي الذي يعايشه المتصوف في محاولة وصل ذاته بذات الخالق. ومن ثم فإن اطلاعنا على تحليل عبد القادر فيدوح للشعر الصوفي، يحيلنا إلى أربعة عوامل تشكل السياق المرجعي لبروز النزعة الصوفية في الشعر، ويمكننا إجمالها في النقاط الأتية:

أ) العامل الاجتماعي:

تنفصل الذات الإنسانية لا شعوريًا عن المجتمع الذي تنتمي إليه بمجرد فقدانها لشعور الانتماء، واغترابها روحيًا عن التصورات العقلية السائدة في بيئته، فتتجه نحو التصوف هروبا وبحثا عن معنى وجودها، والشاعر هنا يكون أكثر الذوات تفاعلاً مع هذه المعاني، كونه يحتكم إلى العاطفة في التعبير عن مواقفه، ليجعل من الألفاظ والحروف أوطان آمنة سامية تمثل سلوكه الفكري في تصحيح نمط الحياة، وضبط مفاهيم المعتقدات الاجتماعية المستحدثة، وفق المعتقد الأصلي الذي يجب أن تتماشى وفقه حياة الإنسان. وهذا ما يؤكده الناقد من خلال قوله: "إن ما نلاحظه في دراستنا العربية أنها بدأت تتحرك نحو التأسيس في اتجاه النقلة الثقافية "العلمية" المعاصرة التي تستجيب لمكونات تأسيس شروط العصر. فلا غرابة إذا أن يعكس النص البرغماتية، ضمن ما يحتويه التعامل الإشاري في دلالاته المتفككة "[3].

إن البحث في علاقة التصوف بالمجتمع، وعلاقة الصوفي بعامة الشعب، يظهر لنا نمطيين من التعابير اللغوية الصوفية تتراوح ما بين الكتابة الصوفية القيمية، أي تلك الكتابة التي تتضمن تعاليم الفكر الصوفي ومبادئ التصوف، يكون الغرض منها" تعليمي" للتعريف بطرق الصوفية ومواعظهم الهادفة إلى تأصيل مكارم الأخلاق، وتهذيب النفس، وتحسين الحياة الروحية للإنسان عن طريق القول الشعري، والكتابة الصوفية الغزلية أو الوجدانية، وهي عبارة عن نفحات روحية في صورة جمالية ناتجة عن حالة شعورية تولدت من رحم الأزمات الاجتماعية، الغرض منها إيجاد أفق جديد لتحرير الذات من ضغط الصراع المادي وتجاوزه خياليًا.

ب) العامل النفسي:

يعتبر الشعر انعكاسا لتجربة وجدانية، ومشاعر ذاتية، تمخضت في نفس الشاعر، فترجمها إلى أبيات شعرية وقصائد، وعلى هذا الأساس كانت العاطفة أحد أركان

العملية الإبداعية، "وبما أن التصوف ظاهرة من الظواهر النفسية التي كان لها أثر كبير في الشعر العربي، وكان في أول أمره إشعاعًا نفسيًا خالصا "[4]، فإن الحضور الصوفي في الشعر العربي الحديث يمثل الرؤيا التي تنقل الشاعر من الكائن إلى الممكن عبر تجاوز الرؤية البصرية و الاعتماد على البصيرة، والرؤية القلبية؛ لتعويض القصور المتولد عن شعور الشاعر بعجزه في مواجهة الأزمات التي تواجه حياته، فكان الخطاب الصوفي بمثابة تحليل سيكولوجي لنفسية المبدع، يظهر تأثير العوامل النفسية في إنتاج الأدب، والمواطن التي تلتقي فيها ذاتية الكاتب مع القارئ.

يستند الشاعر إلى التصوف لتحقيق وظيفة نفسية، تكمن في التخلص من الأفكار اللاشعورية التي سيطرت على النشاط الفكري للذات الإنسانية، الممثلة بشخص المبدع، ومناقشة تصوراتها اتجاه الحياة، وإعادة بناء الجوانب النفسية لشخصية المتلقي وتنميتها.

ج) العامل الفني:

لقد جعلت الرغبة في تجديد الرؤية الفنية لدى الشعراء ينفتحون على حقول معرفية متعددة، وغرضهم في ذلك الابتعاد عن أساليب الكتابة المتصنعة والمبالغة في الأوصاف الدالة على مرجعية مشهدية، الأمر الذي جعل الرؤية الشعرية –حسب رأي عبد القادر فيدوح – ترتبط بالرؤيا الكشفية ضمن الفاعلية الاستبطانية للمعنى الحقيقي للوجود و الاستنطاقية للعلامة اللغوية ومن ثم، فإن التناسب ما بين أغراض القصيدة الحداثية، والذوق الصوفي، جعل الشاعر يلتزم البنية الصوفية في تشكيل النموذج الأدبي، الذي يتجاوز التركيبة الانعكاسية بين البيئة والإبداع، لخلق قصيدة الأفق التي تستجيب لنظرة الإنسان للكون، وتتعمق في تصوير الأبعاد الروحية للذات الإنسانية في مستوى فني فكري بليغ، أما الصوفي فقد استثمر الإيقاع الشعري في الكتابة الصوفية كأداة فنية، تستخدم في الأداء الإنشادي لموضوعات الصوفية، من أجل التأثير في نفس المتلقي.

3.2 العلاقة المعنوية بين الصوفي والشاعر:

يعنى التصوف في أكبر تجلياته بالعزوف عن بهرجة الدنيا، والشعر بطبيعته الفنية هو انتقال من الواقعية هروبا إلى عالم الخيال؛ الأمر الذي جعل الصوفي يستند إلى الكتابة

الشعرية؛ للتعبير عن رؤاه ومشاعره الروحية في العبادة، وفي ضوء ذلك فإن الشاعر استند إلى الصوفية لإضمار أفكاره المناقضة للبنية الذهنية في عصره، والابتعاد بنفسه عن عالم المحسوسات إلى عالم الروحانيات حيث الكمال، ومن ثم" فإن ما يميز هذه التجربة الصوفية هو ملازمتها للشعر، واقترانها به اقترانا عاجلا في الزمن ملحا في المضمون لأن الإنسان لم يع سلطة الكلام بوصفه أداة للمتعة والتأمل إلا في الممارسات الدينية" [5]، ومن هنا تكون التجربة الشعرية الصوفية إيذانا بميلاد نسق معرفي جديد يحاكي النفس في علیائها.

تكمن فاعلية شعرية التصوف في تحرير المعنى من الفكر الاجتماعي الواقعي، وابتكار معان وجدانية، تقوم على الارتقاء بالنفس، لتحقيق معنى السعادة الذهنية، وتحرير اللغة من القوالب القولية الجاهزة، التي تعتمد اللغة العادية، الواضحة المعنى إلى الإشارة بوصفها رمزا لكل فكرة يبتغي الشاعر إيصالها للمتلقي، ومن ثم، فإن التقارب بين فكرة الشعر الحر والفكر الصوفي وتداخلهما تتجلى في فكرة التحرر ذاتها، وذلك بالنظر إلى غاية الصوفي والشاعر المعاصر واحدة، وهي تغيير الفكر السائد، والبحث عن إنسانية الإنسان، وحقيقة وجوده، إذ يسعى الصوفي إلى التخلص من عبادة الماديات في حين يسعى الشاعر إلى إظهار عدم الخضوع للتقاليد المتوارثة شعريا من جهة، والتخلص من عبء التطور المادي، الذي أفقد الإنسان إنسانيته من جهة أخرى .

إن التداخل القائم بين الشعر والتصوف على مستوى التراكيب اللغوية والمعنوية جعل الناقد يرى أن العلاقة التي تجمع التجربتين الصوفية والشعرية يكمن في المعنى الرؤيوي وسمة التجلي الذاتي لأحوال النفس، وذلك من منطلق أن" التجربة الشعرية عند المتصوفة ذات طبيعة خاصة ليس من أغراضها – غالبا – قضية التواصل والتوصيل بالمعنى المفتوح، بل الدافع الأساسي هو التعبير عن معاناة من نوع ما."[6]

وفي هذا الشأن، يبين الناقد أن التصوف لدى الشاعر الحداثي ليس غرضا شعريا تنتمي إليه القصيدة الحداثية، إنما هو أسلوب كتابة ونمط تفكير، ارتبط بوجدان الشاعر، وذلك نتاج التلاقي العاطفي بين الشاعر والصوفي في الزهد في الحياة، وتفاعلهما مع اللامنطق واللامعقول، كما يبين عبد القادر فيدوح أن المشترك المعنوي بينهما يتمثل في:

- تجسيد معنى الخلاص في الكتابة، وذلك بإظهار العزلة ومعاني الاغتراب الروحي، التركيز على الذات كموطن لمكاشفة العالم الغيبي المتكامل.

- يشتركان في مصدر الرؤية، فكلاهما ينطلق من الواقع المأساوي كسياق ظاهري لتولد الرؤية الانفعالية التي يكون مصدرها عند الشاعر والمتصوف هو القلب.

- التعبير بالإشارة والرمز، بحيث تكمن خصوصية الخطاب الصوفي والخطاب الشعري ذو النزعة الصوفية في القول بالتلميح والبعد عن التصريح، فتصبح الألفاظ في معناها الحقيقي إحالة إلى تجلي نور الحق.

3. أنماط الصوفية في الشعر:

تتجلى غاية عبد القادر فيدوح في طرحه إشكالية الصوفية في الشعر الحديث في إبراز مصدر النزعة الصوفية، واستظهار تداخل التصوف كتيار ديني إسلامي مع المذاهب الفكرية الغربية، إذ إن فعل الكتابة الإبداعية في سياقه الحداثي حسب الناقد ليست أحادية الفكرة والتوجه، إنما هو نسيج لغوي جدلي، تتفاعل داخله الواقعية مع الغيبية، و الفكر التراثي مع مستجدات الحداثة الغربية، مما يعني أننا نجد عند الشاعر الواحد، وفي القصيدة الواحدة، مجموعة من الأفكار ذات الخصوصية العربية، وبعضها ذات التأثير الغربي، ويمكن تصور هذا النوع من الكتابة على أنه قراءة للنفس البشرية، وإعادة طرح تصوراتها في صورة تخييلية،" ذلك أن النص الأدبي –اليوم – يحمل دلالات متنوعة وفق ما تحدده القراءات المتعددة التي تختلف هي الأخرى باختلاف المكونات الادراكية للقارئ المتفتح على إطاره الحضاري الذي ينتمي إليه، ضاربا بذلك لازمة الانكفاء على واحدية التصور، متخذا سبيل الانفتاح كقوة دلالية لتفجير مكبوته الكتوم"[7]. هذه الصورة تعكس أحد الأنماط الثلاثة التي أشار إليها الناقد في تحليله على النحو الأتي:

1.3 الصوفية الوجودية:

يستظهر عبد القادر فيدوح نقاط التلاقي والاختلاف بين الصوفية والفلسفة الوجودية في النصوص الشعرية، على اعتبار أن كليهما بحث تساؤلي في كينونة الإنسان وطبيعة وجوده المتعالي عن الأنا الواقعية، فكان الغرض من هذا الطرح البحث في جسر

التواصل بين الإبداع الأدبي والفلسفة، وهو هنا يؤكد على أن العلاقة بين الفلسفة الوجودية والصوفية والتجربة الشعرية تكمن في الانطلاق من الواقع بوصفه تيمة لمساءلة الانتماء الفكري والوجودي للذات، التي تحاول التعالي عن محيطها للتماهي مع المطلق المثالي، بالإضافة إلى تغييب دور العقل والتركيز على الرؤية الانفعالية العاطفية، وما تطمح إليه الروح وهي ترتقي في مراتب الكشف .

تركز الفلسفة الوجودية على ماهية الوجود الإنساني؛ كمحور أساسي لتشكل القيم والمعتقدات الدينية والواقعية الاجتماعية والتاريخية، التي تجسد كيفية تعامل الإنسان مع وحدة الوجود عن طريق نسق الفكر، وقد كان المبدع في القديم يصف الوجود على أنه حقيقة يجب أن تدرك، ثم انتقل حديثا إلى وصفه بأنه نسق يجب تجاوزه للوصول ما وراء الوجود.

2.3 الصوفية السوريالية:

تهدف القراءات الاستبطانية للصوفية والسوريالية حسب رأي أدونيس إلى "التوكيد على أن في الوجود جانبا باطنا، لا مرئيا مجهولا، وأن معرفته لا تتم بالطرق المنطقية – العقلانية، وأن الإنسان دونه، دون محاولة الوصول إليه، كائن ناقص الوجود والمعرفة، وأن الطرق إليه خاصة وشخصية، وأننا نجد استنادا إلى ذلك قرابات وتآلفات بين جميع الاتجاهات التي تحاول أن تستشرف هذا الغيب، وبينها بخاصة، الصوفية والسوريالية"[8].

وعليه، فإن مقاربة عبد القادر فيدوح لوجهات نظر كل من الصوفية والسوريالية للوجود هو بحث عن المعادل المعنوي لهذه التجربة في المضمر الشعري، الذي نفهم منه جملة التوجهات السلوكية للذات في محاولتها لتجاوز حدود الزمان والمكان للتماهي مع المثالي.

يعد الخيال المشترك الأول بين الصوفي والسريالي، وذلك من منطلق أنهما يعيشان حياة ازدواجية، تتراوح بين الحقيقة والخيال، وإنهما يميلان إلى الحياة الخيالية المثالية أكثر من تقبل الواقع، هذا الأمر جعل الشاعر وهو يتخذ نمط حياة الصوفي والسريالي أسلوبا لتجربته الإبداعية يدخل في حالة من اللاوعي في الكتابة، وهذا ما يوضحه عبد القادر

فيدوح من خلال تركيزه على فكرة الغوص بالقلب والروح في محاورة الذات الباطنة، مما يعني أن غاية المبدع ليست إيصال رسالة؛ إنما فتح حلقة حوار بين نفسه والنص، وبين النص والمتلقي، وذلك من منطلق أن الخطاب الصوفي يشتغل على إثارة أفق توقع القارئ وإشراكه في توليد المعنى، وبناء الصورة المتكاملة التي يستشرفها لحاضره، فتكون بهذا الشكل التجربة الشعرية الحداثية ذات البعد الصوفي أو السريالي تجربة إنسانية تخاطب كل ذات متلقية على حسب المعنى النفسي الذي تبحث عنه.

3.3 الصوفية الثورية:

يركز عبد القادر فيدوح على خاصية النقد والتمرد التي أظهرها الشعراء في تجاربهم الصوفية، إذ أن أهم ما يميز طبيعة الشعر الحديث هو النزعة التمردية التي جسدها الإبداع لتغيير الوعي، فلم يكن اهتمام الأدباء بالواقع تقريرا لقيمه الاجتماعية، ورصد صراعاته وأزماته الفكرية، بل هو تقييم للوضع السائد، وحصر أسباب تأزمه وتقويم هذا الوضع بطرح إضاءات معرفية في قوالب فنية لتجديد الرؤية، وإصلاح الفكر، وهذا لن يتأتى حسب رؤية الناقد بالنسبة إلى الشاعر إلا عن طريق الفكر الروحي الذي يعكس حرية التفكير والتأمل في الواقع .

إن النص الشعري الصوفي وهو يجسد بنية التعالي الرافض لتمة الفراغ النفسي من خلال ثنائية الرغبة و الرهبة التي يتبناها الشاعر، ويعبر عنها للدلالة على الرغبة في تغيير النظام الذي يحتكم إليه الفعل الإنساني والخوف من الانشطار الناتج عن فساد القيم، يبين أن الأنا الإنسانية في الخطاب الشعري الصوفي تبرز أكثر من الأنا الدينية، وذلك لأن الشاعر يمثل أنا حالمة تبتعد عن العقلانية في تفكيرها .

4. شفرات الخطاب الصوفي في الشعر عند عبد القادر فيدوح:

قدم الناقد عبد القادر فيدوح قراءة في مجموعة من القصائد، أراد بها الوصول إلى طريقة تعامل الشاعر مع السياقات الصوفية، حيث يرى "أن الصوفية يتميزون عن باقي المخلوقات، هائمين بودهم الخالص وحرقة وجدهم في ذات الخالق، فكأن الحب عندهم يسري كما وصفه ابن عربي "سريان اللون المتلون"، فهم يتميزون باتخاذهم المشاعر

العاطفية في صفائها، طريقا إلى المشاعر الروحية" [9] ولتأكيد هذا الرأي، ركز على استجلاء التيمات الأتية:

أ) الحب الإلهي:

يدل معنى الحب عند الصوفيين على تلك المشاعر النفسية، التي تنتاب الصوفي وهو يخاطب ذات الحق، إنها مرتبة ترتقي فيها نفس المتصوف من العبادة كانقياد جبري لأوامر لله إلى العبادة كتسليم حبا في الله، ونحن بهذا الحال أمام نمط جديد من التفكير الوجداني الذي يؤسس لحلقة عرفانية روحية تتشكل وفق التشكيلة الأتية: النفس، العالم (الحسي، الطبيعي، الروحي)، ذات الإله، بحيث يكون القلب هو الرابط الفعلي بين هذه الثلاثية التي تنتج بفعل الممارسة المتكررة وصول الذات إلى المعرفة اللدنية للذات الإلهية.

وفي خضم هذه التجربة، كتب الصوفية كتابات شعرية تجسدت فيها أحوالهم وأفعالهم، فكان النص الصوفي وسيطا معرفيا مفاده إطلاع المتلقي على خصوصية التجربة الصوفية، ومراتب الحب الصوفي، وفي هذا الشأن عرض عبد القادر فيدوح بعض التجارب الصوفية في مجمل بحثه عن جوهر التصوف والفلسفة الصوفية بكل ما يتنازعها من أراء وأفكار، منطلقا من التفكير الصوفي عند أبي حيان التوحيدي، وصولا إلى الجيل الحداثي من الشعراء الصوفيين، ولنا في هذا المقام أن نستدل بواحد من الأبيات الشعرية التي استدل بها في مقام شرحه لمعنى الحب الإلهي .

قول ابن عربي:

" ولما رأينا الحبّ يعظم قدره ... ومالي به حتى الممات يدان
تعشقت حبّ الحب دهري ولم أقل ... كفاني الذي قد نلت منه كفاني
فأبدى لي المحبوب شمس اتصاله ... أضاء بها كوني وعين جناتي

ويضيف:

" وعن الحب صدرنا ... وعلى الحب جبلنا " [10]

تعد مثل هذه القصائد -حسب رأي الناقد- دليلا على الحضور الصوفي في الفكر العربي القديم، وعلى وجود مقابل للحياة المادية ألا وهو الحياة الروحية، فالإنسان العربي ومنذ القدم كان يهتم بمكاشفة ما يعتريه من أحوال نفسية، وهو يكتشف سر الكون وحقيقة الوجود، تلك الحقيقة التي أرهقت تفكيره العقلاني إلى أن وصل إلى التفكير الوجداني بالتدبر والتفكير المتسامي، حيث يتعالى عن الموجود لمعرفة الغاية من الوجود .

ب) الكشف الصوفي:

تتجسد هذه الصفة فيما يسميه عبد القادر فيدوح بالقصيدة السمة، تلك القصيدة التي يبتعد فيها التصوير الفني عن اعتماد الصورة المستعارة من الطبيعة الحسية إلى اعتماد السمة الوجدانية لبناء النسيج الشعري في التجارب الحداثية، أما في العصر القديم فالكشف مصطلح أطلق على تلك الرحلة الرؤيوية، التي تنطلق من الرؤية القلبية للأنا المنفعلة مع التساؤل الوجودي إلى رؤية العارف بالحقائق المطلقة، والحقيقة أن الغاية من الكشف الصوفي هي التعرف على مواطن الجمال في الذات الإنسانية، التي تعد انعكاسا لصفات جمال ذات الخالق، بالإضافة إلى تحقيق فعل الاتحاد مع ذات الإله، وقد أشار إلى هذا عبد القادر فيدوح في قراءته لشعر الحلاج الذي يقول :

" فأنـــا أنـــت كمـــا أنـــك أنـــــــــي ومـــــــــرادي

روحـــه روحـــي وروحـــي روحـــه إن يشـــأ شـــئت وإن شـــئت يشـــأ

فـــــإذا أبصـــــرتني أبصـــــرته وإذا أبصـــــرته أبصـــــرني " [11]

يرى الناقد في هذه الأبيات تجسيداً لجدلية الانعكاس المتبادل، بمعنى الاستحضار الروحي لحقيقة وجود ذات الإله فيصبح قلب الشاعر المتصوف مركز حلول ذات الخالق في ذات الصوفي.

ج) الاغتراب والقلق الصوفي:

تعد الشعرية العربية الحديثة شعرية موقف تحرري في قصيدة إنسانية تحكي اغتراب النفس ومحاولتها في الارتقاء إلى مقامات غيبية نورانية، استثمر فيها الشاعر أحوال

الصوفية لينتقل من التشظي إلى الكمال، وهو في هذه الحالة يعتمد الرمز الصوفي ليشير إلى فكره اللاواعي ويخفي قلقه، فتصبح بذلك القصيدة قصيدة تجلي انفصال الذات عن العالم، وابتعاد الذات عن الله، بمعنى أنها تستظهر العوامل المؤثرة في سلوك الإنسان المتخوف من مشروع العبثية والثقافة الحديثة، التي سيطرت على العقل العربي، وفي منحى أخر تفصح عن فكرة تعويض الشعور بالانعزال. هذا ما يوضحه الناقد في تحليله للتجربة الشعرية عند الأخضر فلوس، ومن نماذج قراءته لقصائده نعرض وجهة نظره في هذه الأبيات التي يقول فيها الشاعر:

" إنني أتشكل في ملكوتي، أحس
بنار بعظمتي
أحمل مسبغتي فوق ظهري
و أقطع برا عريضا ....
ونفسي تبكيكم في أماكن
نائية ...." [12]

يبين عبد القادر فيدوح أن الأخضر فلوس في نصوصه الشعرية يقدم رؤيا عالم حسي تكشف عن جوهر الوجود لإعادة بناء الوعي الفكري، وإنتاج مسار شعوري لتقويم القيم الأخلاقية السائدة، كما أن شاعريته تتأسس على شكل مخيال ذاكرتي يشتغل على ملامسة العالم الروحي.

د) العبارة الصوفية:

تعد اللغة من أهم المؤشرات التي تظهر الخطاب الصوفي في الشعر، إذ يعرف الصوفيون باستخدام ألفاظ ومعان خاصة بهم، وتكمن خصوصية هذه اللغة في أنها تستخدم اللفظ العادي، وتدخل عليه الدلالة الصوفية المغايرة للمعنى الأصلي، ف"المعروف عن الصوفية أنهم قوم لا يتكلمون بلسان عموم الخلق، ولا يخوضون فيما يخوض فيه الناس من مسائل علم الظاهر، وإنما يتكلمون بلسان الرمز والإشارة" [13] فمصطلح "السكر" مثلا وهو المصطلح الذي يستخدم للدلالة على الحالة التي يصبح عليها شارب الخمر، تستخدم في الخطاب الصوفي للدلالة على اللاوعي النفسي للمتصوف، الذي

ينتقل فيه من معرفة نفسه إلى رؤية ربه، وفقدانه للإدراك الحسي والدخول في العالم الغيبي.

كتب العديد من الشعراء نصوصا شعرية بلغة الصوفية، وذلك لما تحمله من عمق الدلالة والرمزية في طرح المضامين الوجدانية والخبرات الإنسانية، وفي ضوء ذلك وضح عبد القادر فيدوح هذه الميزة في معرض تحليله لشعر التجاني يوسف وشعر أديب كمال الدين، وشعر أدونيس، وعبدالله العشي وغيرهم، حيث يؤكد على أن العلامة في النصوص الشعرية هي دوال تعبر عن "نزعة فكرية، حلم إنساني، واقع اجتماعي"، تتمظهر في شكل تراكيب لفظية مكتوبة، أو بياضات فارغة، يقصد بها الشاعر إشراك القارئ في التجربة ومعايشتها لغويا، لتصبح هذه العلامات عوالم احتمالية تحكمها الإشارة والرؤيا .

إن التعرف إلى مقصدية الشاعر من اتخاذ مسالك الصوفية سبيلا للتخلص من نمطية اللغة الشعرية والمعاني الواقعية المصورة، كان الغاية التي حاول الناقد الوصول إليها من خلال قراءته لهذا الشكل من الكتابة الصوفية، ونخص بالذكر قصائد كمال الدين أديب الذي يشتغل فنيا على الحرف كأيقونة مصغرة لباطن معقد ومأزوم. من نماذج ما طرح الناقد في تحليله لشعر كمال الدين هذه القصيدة التي تتحدث عن حرف النون الذي يحيل – في إشارة -إلى ضياع قيمنا الفكرية والحضارية.

يقول أديب كمال الدين:

"لكل من لا يفهم في الحرف أقول

النون شيء عظيم

والنون شيء صعب المنال

إنه من بقايا حبيبتي الإمبراطورة

ومن بقايا ذاكرتي التي نسيتها ذات مرة

في حادث نوني عار تماما عن الحقيقة " [14]

تبدو القصيدة الصوفية الحداثية في نظر عبد القادر فيدوح كأنها فعل كتابة فردية بذاكرة جماعية، نفهم بها الهوية الإنسانية في طبيعتها الاجتماعية والروحية، إنها إنتاج ثقافة عصر وميلاد إدراك تأملي، يقوم على فكرة الاستشراف الذاتي لرؤيا عالم غيبي مطلق.

وبما أن التجربة الصوفية "هي مجموعة من التجليات الوجدانية المؤيدة بأطوار روحانية يسلكها جملة من الشعراء" [15]، يمكننا القول أن التجربة الشعرية الصوفية هي تجربة: صوفية المعنى، شعرية المبنى، حيث إن شعراء الحداثة ليسوا كلهم صوفيين بالمعتقد، ولكنهم متصوفة بالخيال واللغة، بمعنى أن القصيدة وإن كانت تظهر في شكل تجل صوفي إلا أنها في الأصل عبارة عن تجلٍ عاطفي صبغته اللغة الصوفية بالنزعة الصوفية، فكان الشكل الشعري هو الفضاء الذي انفتحت فيه دلالات تجربة القراءة الصوفية للوعي الإنساني.

5. خاتمة:

لعل آخر ما يمكن أن نختم به دراستنا هذه، هو الإجابة عن التساؤلات التي أثارتها قراءتنا لمنجز عبد القادر فيدوح في اقتراء المعنى واستجلاء التلاقي الصوفي والشعري في التجارب الإبداعية الأدبية الحديثة، التي تزيل الغموض عن معنى الخطاب الصوفي والشعرية الصوفية، وعليه سنلخصها في النقاط الأتية:

التصوف رؤيا وأفق معرفي غايته التطهير والاستعلاء على النظرة السوداوية، فالأدب الصوفي ليس أدبا دينيا بل هو إنتاج شعري سيكولوجي.

يختلف مفهوم النزعة الصوفية وحضورها في الخطاب الشعري من مدرسة أدبية إلى أخرى، فهي وليدة لحظة الانفعال الشعوري، تتمظهر في الشعر الحديث بأشكال مختلفة أبرزها: توظيف مصطلحات صوفية في تشكيل اللغة الشعرية، استحضار شخصيات صوفية لسرد قصص تصوفهم أو الاستشهاد بمواقفهم الروحية، تناول موضوعات وقيم فكرية صوفية.

الكشف الصوفي فيما تقدم به الناقد عبد القادر فيدوح هو مظهر من مظاهر تعامل الشاعر روحيا مع المحنة؛ لمنح الذات إمكانية كشف الحجاب عن المعنى الغيبي.

أغلب الشعراء الحداثيين لم يمارسوا التصوف كتوجه ديني، إنما كانت التجربة الصوفية عندهم وظيفية أكثر منها مذهبية دينية، لأن غايتهم فنية تخيلية نفسية.

مقومات الخطاب الصوفي في الشعر الحديث هي الرؤية الاستشرافية الحالمة، التضاد اللفظي بين الكلمة وما تحيل إليه معنويا، الرؤية بالقلب.

*** *** ***

6. الهوامش:

[1] ينظر: محمد مرتاض، التجربة الصوفية عند شعراء المغرب العربي في الخمسية الهجرية الثانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009، ص 47.

[2] عبد القادر فيدوح، معارج المعنى في الشعر العربي الحديث، دار صفحات، سوريا، 2021، ص 03.

[3] عبد القادر فيدوح، إراءة التأويل ومدارج معنى الشعر، دار صفحات، د ط، سوريا، 2009، ص42.

[4] عبد الحكيم احسان، التصوف في الشعر العربي، نشأته وتطوره حتى اخر القرن الثالث الهجري، مكتبة الأنجلو المصرية، د ط، القاهرة، 1954، ص 08.

[5] ياسين بن عبيد، الشعر الصوفي الجزائري (المفاهيم والإنجازات)، مطبعة الجيش، د ط، الجزائر، 2007، ص 27.

[6] محمد علي الكندي، في لغة القصيدة الصوفية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، بيروت، 2003، ص81.

[7] عبد القادر فيدوح، دلائلية النص الأدبي – دراسة سيميائية للشعر الجزائري -، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، وهران، 1993، ص05.

[8] أدونيس، الصوفية والسوريالية، دار الساقي، ط3، 1991، ص15.

[9] عبد القادر فيدوح، نظرية التأويل في الفلسفة العربية الإسلامية، دار الأوائل، ط1، سوريا، 2005م، ص187.

[10] المرجع نفسه، ص200.

[11] عبد القادر فيدوح، التجربة الجمالية في الفكر العربي، دار صفحات، سوريا، 2014، ص82.

[12] عبد القادر فيدوح، معارج المعنى في الشعر العربي، ص72/71.

[13] ابن عربي محي الدين، فصوص الحكم، تعليق أبي العلا عفيفي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د ت) ص15.

[14] عبد القادر فيدوح، أيقونة الحرف وتأويل العبارة الصوفية في شعر أديب كمال الدين، منشورات ضفاف، لبنان، 2016، ص 35.

[15] عمر أحمد بوقرورة، دراسات في الشعر الجزائري المعاصر، دار الهدى، الجزائر، 2004، ص97.